



يقال: الألم العقري ينبع الفن العقري.. والفن العظيم وراءه ألم عظيم، ولكن يا حماة أنا لا أستطيع أن أكتب شيئاً يصف ألمكِ..

كل يوم قبل أن أنام أقرأ قليلاً عن ما حدث أو أشاهد بعضاً مما وصل عن المجازرة في محاولة لاستجلاب الإلهام ووحي الكتابة، وكل مرة يرتد إلي قلمي خائباً ويهدوئي مرتجفاً مذعوراً من هول ما حصل.. وعاجزاً عن كتابة شيء يليق بهذا الجرح العتيق!

أغفو كل يوم بعد موجة هستيرية من البكاء لاستيقظ فأرى القلم قزماً بالنسبة للألم العملاق، وأرى الورقة قد أفسدتها قطرات الدمع الماحلة، استيقظ وقد امتلأ قلبي حقداً فأمسك بالقلم وأتمنى لو كان خنجراً أغرسه في قلب أولئك الوحش كيف فعلوا هذا.. كيف لم طاوعتهم أنفسهم كيف؟ كيف؟ كيف؟

وما عرفته يطلق عليه "تسريبات"، أي ما فاض عن الإناء.. أي أنه جزء متواضع مما حصل، جزء متواضع من ما راح ضحيته أكثر من 30 ألف نفس...!

غرد الدكتور براء السراج يوماً على تويتر فقال: "عندما كنت في تدمر التقيت بأحد الناجين من مجزرة حماة، هرب زحفاً على يديه وقدميه وأقسم لي أن جسده لم يطأ زفت الشارع!"
يقصد أنه كان يزحف فوق الجثث..

تخيل فقط هذا المشهد.. وتخيل أن لكل جثة شهيدٌ حكاية.. ووراء كل حكاية مأساة..

- في خضم ما يحدث تُهمل التفاصيل الصغيرة الأكثر إيلاماً وتُنسى.. لذلك فكرت أن أكتب قليلاً عن هذه التفاصيل الصغيرة؟

كان هناك شيخ عجوز طاعن في السن ولديه أربع فتيات..

كان الشيخ مقعداً لا يقوى على الحركة، وينفق عليه وعلى الفتيات تعلان عليه حياته.. بل كن حياته و"كونه" كله..

أخذت الفتاة الصغرى -أحبهن إلى قلبه- إماء اللbin وقبلت رأس والدها بابتسامة مشرقة: صحة وهنا بابا.. وقبل أن يبتسم ويترضى عليها اكفره وجه السماء واقتحمت عاصفة الموت الشرسة منزلهم.. صاحت الفتيات الثلاث مذعورات وهربن إلى الغرفة ليغطين رؤوسهن، واختبأت الصغرى خلف كرسي والدها الشيخ، ظناً منها أن للشيخ عند أولئك حرمة..!

12 رجلاً بهيئة شياطين أو ربما شياطين بهيئة رجال بدؤوا بالتحطيم والضرب وأنهالوا بالشتم والألفاظ المخجلة.. قطع الرعب الدم في العروق وتجمعت الفتيات في زاوية الغرفة يرجفن ويدعنين الله أن لا يحدث ذلك! والفتاة الصغرى تشبث بكلسي والدها وانطوت على نفسها ترجف يذعر.. انقض الوحوش على الفتيات، ولم تنج تلك التي احتمت خلف الكرسي.. صرخ الشيخ متوسلاً وال مجرمون غير آبهين لاستغاثاته، فهب لنجدتها الفتيات وحاول الدفاع عنهن ناسياً أنه.. مشلول! فوقع من على الكرسي، ورفسه الضابط بحذائه العسكري فتلوي من الألم واستقر على الأرض وفي عينيه تلألأ "دموع الرجال" وصوت عويل العذراوات يصم آذانه..

أُسْدِلَ الستار هنا عند هذا المشهد بسبب التضييق الإعلامي الذي فرضته "السلطات المسؤولة".

وانتهى المشهد الفظيع ليخرج الأنذال من البيت وقد كسروا كل شيء غير آبهين بحياة الفتيات ولا بكرياء الرجال! رافعين أسلحتهم علامة النصر... وهاتفين بروح القائد..

والشيخ مرمى على الأرض معقود اللسان والعذراوات صرعى والأنذال ظنوا أنهم كسروا حماة..

وفي الحارة الأخرى كانت تسكن "أم فارس" مع طفلها فارس الذي رُزقت به على الكبر.. كانا منذ ثلاثة أيام مختبئين في سقية المنزل، وكانت تضمه إلى صدرها وتخبئه عن عيون أولئك الوحوش الذين جاؤوا للقضاء على "المسلحين من الإخوان"!

ولكن بلغ منها الجوع مبلغاً لم يعودا قادرين على احتماله، ووصل إلى مسامعيهما أن أطفال الحارة خرجوا إلى الساحة الرئيسية لأخذ الخبز الذي كان يُوزع هناك.. وبعد توسّلات وأخذ ورد سمحت الأم لطفلها أن يذهب بشرط أن يذهب معه ابن حاله وأولاد الجيران..

ذهب فارس ولكن لم يعد.. تأخر فلحقه أمه الحنونة تتفقده.. لتراه ملقاً على الأرض وفي يده أرغفة الخبز وعلى يمينه تسع أطفال.. نظرت إلى الخبز وقد اختلط بدم فلذة كبدها واختلطت رائحته بعبق الشهادة، لم تستطع احتمال المشهد ركضت إلى ابنها تضمه فأصابتها رحمة الله ممثلة برصاصة وسقطت مضربة بالدماء فوق ابنها لتلتحقه وارتقت أرواحهما معاً إلى الملأ الأعلى.. حيث لا ظلم ولا بغي.

استشهدت الأم وابنها.. وتركوْنا نتعذب بذكراهما.. وروحهما اليوم ترقينا.. فماذا ترانا فاعلين من أجلهما؟

وقرب الناعورة على كتف العاصي.. ولدت قصة حب عذري بين قلبين، أُعدم صاحب القلب الأول بتهمة أنه "شاب" .. وتفطر القلب الآخر وجداً عليه.. كبرت الفتاة وهي تنتظر الوفاء بوعد الزواج ولم تتزوج حتى الآن! وهي تنتظر.. وإلى اليمين قليلاً كانت هناك امرأة رُملت البارحة (منذ 30 عاماً) وثكلت اليوم.. واستشهدت في اليوم التالي سحلاً بأيدي من لا يخافون الله.

وخلال ذلك كله كانت الناعورة الحموية تقف شامخة، عنفاتها تدور رغم العنف.. بل بسببه! فقد كانت تعلم أن الماء (والدم!) لا يفسد إلا عندما يركد.. فاستمرت بالعطاء والبذل وكل يوم كانت تلقي في اليم بأفلاد كيدها.. صابرة راضية محتسبة ذلك عند ربها: {لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك..}، وبإذن الله سيرده الله بأيديينا!

هذه القصص الصغيرة يهملها الرواية.. يختصرنها بكلمة "فظائع" .. ربما تكون القصص السابقة مؤثرة ولكن فعلًا ليست شيء من ما حصل في حماة أسطورة.. وكل قصة فيها أسطورة.

حماة ليست جرحاً في الذاكرة وإنما رصيفٌ من الجراح.. بل مدينة من الجراح..

وعلينا لك يا حماة.. القصاص..

ولن يكفي.. كل ما سأكتبه لن يكفي... وكل ما سيكتبه الجميع لن يكفي.. وحسبنا الثورة تكون عربون وفاء لمدينة أبي الفداء...

أكثر ما كان يحز في نفسي وأنا أقرأ المجازر.. هو الأطفال.. ما ذنب البراءة؟ ما ذنب جيل كامل من الأطفال أن يكبر بلا أب..؟ أن يكبر وقد كسر النظام ظهره وكبرياؤه..

ولكن أطفال المجازرة أصبحوا شباب الثورة اليوم.. ولم يكسر النظام شموخهم بلكسروا هم.. ظهر النظام! "وحبوب جنبة تجف ستملاً الوادي سنابل".

حقاً لو أن حماة لم تشارك في هذه الثورة لما لمناها ولا عتبنا عليها فكيف بنا وقد انتفضت على بكرة أبيها..؟ حماة مصنوع الرجال..

هذا كل ما جاد به قلمي.. والمدم لا يختصر بالحبر، والأنة المدوية لا تختصر بالـ "آه"، ولا الجراح تختصر بالحرروف.

على الهاشم:

يقدر عدد شهداء المجازرة بـ 20 ألف إلى 30 ألف، ووحده اختلاف تقديرات ضحايا مجذرة حماة بين 20 ألف و40 ألف، جريمة قائمة بذاتها تدل على فظاعة ما جرى وصممت الناس والمجتمع الدولي.

المصادر: